

القصاص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم
عليه السلام

أ. أناهير السميري

اللقاء الخامس

مدونة علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عَلِمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

[/http://tafaregdrooms.blogspot.com](http://tafaregdrooms.blogspot.com)

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
 - ✓ هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليها الأستاذة حفظها الله.
 - ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

المقدمة:

السَّلَام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين والصَّلَاة والسَّلَام على سيِّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

هذا هو تحارنا الخامس من هذا الشَّهر المبارك، نسأل الله أن يتقبَّل مِنَّا صيامه، وقيامه، وأن يعيننا على جمع قلوبنا في الطَّاعات، وعلى الإخلاص، والصدِّق في هذه القربات الَّتِي مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِجَعْلِ شَهْرٍ خَاصٍّ يَتَفَرَّغُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ لِلْقُرْآنِ بِمَتْلَأٍ مِنْهُ إِيمَانًا فَيَنْتَفِعُ الْوَجْدَانِ، وَيُهْدَى الْجَنَانُ بِمَعْرِفَةِ الرَّحْمَنِ، وَمَعْرِفَةِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الَّتِي هِيَ دَعَائِمُ يَعِيشُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ، فَهِيَ فِي حَقِّهِ أَهَمُّ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لَكِنْ تَبَصَّرَ مِنْ تَبَصَّرَ وَغَفَلَ مِنْ غَفَلَ، فَنَسَأَلُ اللَّهَ بِمَنِّهِ وَكِرْمِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ تَبَصَّرَ فَإِنَّ النَّاسَ كَمَا وَصَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: أَعْمَى وَبَصِيرٌ.

وقد كُنَّا وَلَا زِلْنَا فِي الْكَلَامِ عَنِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ _ إِبْرَاهِيمَ _ نَتَمَتَّعُ بِذِكْرِ اللَّهِ لَهُ، وَنَقْرَأُ تَارِيخَهُ رَاغِبِينَ فِي أَنْ يَكُونَ قَدُوتَنَا، بِتَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ وَأَتَمَّا كَلِمَاتِ يَبْتَلِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا الْعِبَادَ فَإِنْ أَحْسَنُوا، وَأَتَمَّوْا، وَوَقَّوْا، شَكَرْهُمْ، وَإِنْ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

فَنَحْنُ بَيْنَ طَمَعٍ فِي شُكْرِهِ، وَرَغْبَةٍ فِي مَغْفِرَتِهِ، وَقَدْ سَمِعْنَا مِنْ أَخْبَارِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ **{وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}** سَمِعْنَا أَنَّ رَبَّهُ ابْتَلَاهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَشَكَرَ لَهُ رَبَّنَا أَنْ جَعَلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَطَمَعُ ذَلِكَ الشَّيْخِ الصَّالِحِ ذُو النَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الْحَرِيصَةِ عَلَى الْخَيْرِ، طَمَعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ أُمَّةٍ، فَبَيَّنَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَيْفَ يَعْمَلُ عِبَادَهُ **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** وَهَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا تَحْتَاجُ إِلَى تَوْقُفِ أَمَامِهَا لَكِنْ نَسَأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَنَا مَنَاسِبَةً لِلْوُقُوفِ حَوْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَكَيْفَ كُلَّ يَوْمٍ نَرَى أَنَّهُ **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** فَتَرَاهَا يَعِينُكَ، وَتَشْهَدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ.

فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ _ كَمَا مَرَّ مَعَنَا _ كَانَ هَذَا أَوَّلَ مَوْطِنٍ فِي تَرْتِيبِ الْمَصْحَفِ يَأْتِي فِيهِ الْخَبْرُ عَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِدَأْ بِهَذَا الْخَبْرِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ قِيلَ أَيْضًا وَادَّكَّرَ هَذَا الْحَدِيثَ الْعَظِيمَ وَهُوَ أَنْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَكَيْفَ كَانَ حَالُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بِنَائِهِ هَذَا الْبَيْتَ، فَشَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ جَعَلَ مَقَامَهُ مَصَلًى، وَمِمَّا ابْتَلَى بِهِ أَيْضًا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ أَمَرَ بِأَنْ عَهْدَ اللَّهُ إِلَيْهِ هُوَ وَابْنُهُ تَطْهِيرَ الْبَيْتِ.

^١ [التجم: ٣٧]

^٢ [البقرة: ١٢٤]

الآيات:

وأتى في سياق الكلام عن رفع البيت، يُقال لنا: وهو في هذه الحالة، حال رفع قواعد البيت هو وابنه دعوا الله بهذه الأدعية الثلاثة، نسمع مرة أخرى الآيات ونرى هذه الأدعية الثلاثة التي دعوا بها:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

كانت هذه الآيات فيها خبر أهما عند بناء البيت ذكرًا ثلاثة أدعية:

١. الدعاء الأول: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) }
٢. الدعاء الثاني: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
٣. الدعاء الثالث: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وفي كل هذه الأدعية نجد الشان المهم وهو معرفة الله، فإن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قد نادا الله وكثرا { رَبَّنَا } وهذا كله سؤال الله بربوبيته الخاصة.

وتبين لنا بعدما ذكر ربنا لنا أنه جعل البيت مثابة للناس، بين لنا كيف نشأ هذا البيت؟ وأهم ما في نشأة هذا البيت هو ما دعا به إبراهيم وإسماعيل، وقد كثر كما تبين لنا اسم _ الرَّبِّ _ لأنَّ إجابة الدعاء من شأن الربوبية، يعني يُجيب الله الدعاء فيخلق، ويوجد ما دعا به العبد.

على كل حال لا نريد أن نعود إلى الوراء ونذكر أنفسنا بما مضى من الآيات، من أجل ألا يذهب الوقت وإن كانت هي مليئة بالمعاني التي لا تنتهي لكن دعونا نبدأ اليوم بالشيء المهم جدًا وهو: دعاء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لهذه الذرية بإرسال رسول فيها.

◀ الدعاء بإرسال رسول:

وهذه الذرية هم أبناء إسماعيل وهم العرب وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة فبعث في ذريته رسولاً منهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم بُعث للعرب وللناس كافة وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه دعوة إبراهيم، يعني ومُراد هذه الدعوة.

وقد خرّج الإمام أحمد عن عِزْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)) وأخبر في هذا الخبر ((وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةَ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ)) ((وَبِشَارَةَ عِيسَى بِي)) لأن عيسى قد أفصح باسم الرسول صلى الله عليه وسلم، فأول من نوه بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأشهره في الناس هو عيسى عليه السلام لما دعا {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} وعيسى عليه السلام قد ذكره باسمه كما في سورة الصف {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} فهو دعوة إبراهيم وبشرى عيسى، هذا في الخبر عن أنه دعاء من إبراهيم عليه السلام واستجابة من رب العالمين.

وهذا دليل على هذه النفس الحريصة على الحق، حريصة على نشره، حريصة على التوحيد، وعلى بيانه. وهذا يفسر في وجه من الوجوه في أننا نذكر إبراهيم عليه السلام مع محمد صلى الله عليه وسلم فنقول:

— اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ —

فإن إبراهيم صلى الله عليه وسلم دعا لمحمد صلى الله عليه وسلم، فإبراهيم عليه السلام قال: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ} فدعا إبراهيم صلى الله عليه وسلم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم هو وأُمَّته لإبراهيم.

^٤ من الحديث: عَنْ عِزْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمُنْجِدٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةَ عِيسَى.

^٥ [الصَّف: ٧]

وإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أبو الملة كما قال تعالى في سورة الحج **{مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}** فكأنه يُدعا له من باب دُعاء الأبناء لأبيهم، وإن كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنسبة لهذه الأمة كالأب، لأنه ورد في الحديث **((إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ))** يعني في الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ.

فإذًا اجتمع في كونهما بمثابة الأب، فنصلي على رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وندعو لإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا تحقيقًا لقوله تعالى **{وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)}** يعني ابق لي ثناء حسنًا، و**{الْآخِرِينَ}** في تفسير يعني في أمة محمد، فكانت هذه إجابة الله أن قرن ذكره بذكر نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيبقى الثناء الحسن عليه في هذه الأمة.

صفات الرسول ﷺ الأربعة:

فإذًا لما طلب إبراهيم عليه السلام بعثة رسولٍ منهم، ذكر لذلك الرسول صفات:

١. فكانت الصفة الأولى قوله: **{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ}**.

٢. والصفة الثانية: **{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}**.

٣. والصفة الثالثة: **{وَالْحِكْمَةَ}** يعني هو يعلمهم الحكمة.

٤. والصفة الرابعة **{وَيُرِيهِمْ}**.

فأصبحت هذه أربعة وظائف يقوم بها النبي كآثارها أربعة صفات.

وقد اختار الشيخ السعدي رحمه الله في الفرق بين أن **{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ}** و**{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** أن تلاوة الآيات معناها أنه يقرأها عليهم **(لفظًا)** فيسمعون الآيات، والسماع له شأنه العظيم، فيسمعون وهم أعرب يحفظون، فيسمعون ويحفظونه فإذا تلا عليهم الآيات فسمعوا وهم قوم يتأثرون جدًا بالمسموع، كما يتأثر الناس عمومًا، لكن هم

^٦ [الحج: ٧٨]

^٧ من الحديث: ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ، أَعَلَمْتُكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْحَلَاءُ، فَلَا تَسْتَقْبِلُوهَا وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَا يَسْتَنْجِي بِيَمِينِهِ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِقِلَافَةِ أَحْجَارٍ، وَيُنْهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّقَّةِ)) [مسند أحمد ابن حنبل - مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حديث رقم 7259]

^٨ [الشعراء: ٨٤]

^٩ تيسير الكريم الرحمن - عبد الرحمن السعدي - تفسير الآية ١٢٩ سورة البقرة.

لهم خاصيّة في تمييز الكلام البليغ وفي فهم معانيه، فإذا سمعوا ألفاظه، وحفظوه، وأعاد عليهم حتى حفظهم إياه، علّمهم مع ذلك الكتاب، يعني علّمهم المعاني، فيسمعونه لفظاً ويفهموه معنى.

ومن تعليمه الكتاب تعليمه الحكمة، والحكمة كما أشار الشيخ السعدي في موطن آخر تحتل أن تكون (السنة) وهي بيان للكتاب ويحتل أن تكون الحكمة يعني (أسرار الشريعة) بمعنى من أحكمت الشيء، وكيف أن الله عز وجل قد وضع كل شيء في موضعه.

وقد قال ابن وهب ((قلت لمالك: وما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقّه فيه، والاتباع له.))

فالحكمة التي هي النظر إلى كمال هذه الشريعة الظاهر في أحكامها، فيعلّمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع، وهذا أمر عظيم يزيد الإنسان به إيماناً، ويزيد به يقيناً، ويزيد به معرفة لربه، ولا يُقصد بذلك أن الإنسان لا يمثل إلا إذا عرف الحكمة من الأوامر والنواهي، وليست الحكمة تُفسّر بأمر دنيويّة يحصل عليها في الدنيا، فإنّ الحكمة من الصيام أمر عظيم مثلاً لا يستطيع الناس أن يُحيطوا به علماً إلا أنك تقول في ذلك أن الإنسان لما يجبس نفسه عن الشهوات يسمو ويعلوا على جسده، ويقوى قلبه وتصفوا روحه، وقل مثل هذا كثير. فلا بد أن تُفهم ما هي الحكمة وليس المقصود أنه لا بد أن تكون هناك فوائد دنيويّة.

ثم تأتي الصفة الرابعة من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم {وَيُزَكِّيهِمْ}

وبهذا الترتيب ننظر إلى أمر مهم جداً في حُطّتنا في الحياة، لأنّ الإنسان يكتمل لما يحصل له شأنان:

✓ الشان الأول: أن يعرف الحق.

✓ والشان الثاني: أن يعمل بهذا الحق.

فإذا أخلّ بشيء من هذين الأمرين، ما يكون حَقّق المقصود من وجوده {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)} فمعنى ذلك لم يكن طاهرًا عن الرذائل والنقائص إذا أخلّ بشيء من هذين الأمرين لم يكن زاكياً، فكأنه يُقال لما ذكر الله عز وجلّ صفات الفضل والكمال، أنهم يسمعون الآيات، ويتعلّمون

^١ تيسير الكريم الرحمن _ عبد الرحمن السعدي _ تفسير الآية ١٦٤ سورة آل عمران.

^١ جامع البيان _ ابن جرير الطبري _ تفسير الآية ٢٦٩ سورة البقرة.

^١ [الشمس: ٧-٩]

معانيها، ويتعلّمون أسرارها، أردف ذلك بذكر التزكية عن الرذائل والتّقائص، والنّبي دوره في هذا أن يدهّم على السّبيل، فهو لا يتصرّف فيهم إنّما يُرشدهم.

إذاً ماذا يفعل من أجل أن يركبهم؟ ماذا يفعل سوى أن يتلو الآيات ويعلمهم الكتاب والحكمة؟ ماذا يفعل ليكون سبباً لطهارتهم؟

إنّما هذا يظهر من مسلكه - صلّى الله عليه وسلّم - من الأمور التي كان يفعلها من الوعد والإيعاد، ومن الوعد والتذكير، وتكرير ذلك عليهم، من تصوير الدنيا وحقيقتها، فكان يقوّي عندهم شأن الآخرة، ويقوّي دواعي الإيمان والعمل الصالح، كان يضعّف لهم شأن الدنيا ويُعظّم لهم شأن الآخرة.

ولمّا تقرأوا مثلاً أحاديثه - صلّى الله عليه وسلّم - التي حدّث بها أصحابه، ومن أحسن ما تقرّئي في ذلك - كتاب الرّفاق في صحيح البخاري - تجدّين كيف صلّى الله عليه وسلّم زكاهم؟ كيف صور لهم الدنيا؟ حضّمهم على ترك الطّمع فيها، أمر عجيب الحقيقة، وأنا أنصح نفسي وكلّ من أراد لنفسه الخير أن لا يقطع نفسه من هذا الكتاب خاصّة - كتاب الرّفاق في صحيح البخاري - فكلّ زمن يراجعه فيسمع من أحاديث النّبي صلّى الله عليه وسلّم ما تزكو بها النفس. فالنّبي صلّى الله عليه وسلّم كان على خلق عظيم، أوّقي مكارم الأخلاق، وكان يحضّمهم على ذلك وطبعاً هذه بداية الأمر من عند تطهيرهم من الشّرك.

وهذا يدلّ على أنّ ذرّيّة إسماعيل يكون فيها الجهل، ويكون فيها الشّرك ينجّسهم، فيأتي هذا الرّسول يطهّره ويجعلهم حكماء الأرض بعد الجهل.

على كلّ حال زكّى النّبي أصحابه وأتمته عن الشّرك، وسائر الأرجاس، ودّهّم على طريق حُسن الأخلاق، وهذا الدّعاء الذي دعا به إبراهيم عليه السّلام سنكّر أنّ يدلّ على نفس مليئة بالخير بعيدة عن الشرّ، وعن الحسد، تعلم أنّ كلّ خير ينتشر إنّما لها فيه نصيب على قدر حبّها لهذا الخير، على قدر دعائه، ونحن نجد أنفسنا في أوقات الفتن وفي وقت الخوف عاجزين حتّى عن الدّعاء، أو نكون مهملين، أو نكون غير مهتمين بمن بعدنا، أو أصلاً غير مهتمين أن تكون ذرياتنا على الإيمان والتّقوى، فاللّهم سلّم، اللّهم سلّم.

ختم هذا الدّعاء كعادته في معرفته الله **{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** فكأنّه يقول أنت قادر، عزيز، شأنك عزيز إن شئت كان هذا الأمر، وأنت عزيز حكيم تضع الأشياء في مقامها.

قال الشيخ السعدي (فبعزتكم وحكمتكم، ابعث فيهم هذا الرسول. فاستجاب الله لهما،)

ونجد هنا في معرفتنا بإبراهيم عليه السلام أنه ذو فقه وعلم وفطنة، فقد قال: **{رَسُولًا مِنْهُمْ}** يعني يعرفونه فإذا كان منهم تيسر القبول منه، وإذا كان منهم عرفوا صفته وعرفوا ماضيه.

فترى سؤاله سائرًا بهذا الترتيب:

﴿يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ فيصدقون أنه نبي.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيفقهون ما يقول.

﴿يَعْلَمُهُمُ الْحِكْمَةَ﴾ فيصبحوا حكماء.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فيكونون أصحاب أخلاق فاضلة، ينمي أخلاقهم ويطهرهم من كل رذيلة.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ذاك الرجل، يأمر بالبر، ويأمر بكل خير، وينهى عن الإثم والقطيعة، والعدوان والعقوق والكذب، وكل مساوئ الأخلاق.

فهذه شريعة كاملة وتحول الناس من الجاهلية الجهلاء إلى هذه الحالة أمر لا يتصور إلا بعزة الله وبحكمة الله، فعزة الله وحكمة مناسبة لبعث الرسول لأن ما يأتي به الرسول كله حكمة وفيه العزة **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** فهو العزيز القادر على نقلهم من حال إلى حال، وهو الذي يُعز من آمن وعمل صالحًا، ولذلك يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين، لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

على كل حال فكم نجد في كلام إبراهيم عليه السلام فقهه وعلمه وفطنته، وأذكركم مرة أخرى **{وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ}** يعني - منهم - وهذه مناسبة جدًا **{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** فلأنه سيكون في رتبته في العز، وهم يعرفونه ويعرفون مولده ومنشأه، ويعرفون صدقه وأمانته، فما يتعززون عليه وإنما يُعزّه الله، وسنرى أنه لو يكون منهم سيكون أحرص الناس على خيرهم، وأشفق عليهم، فإبراهيم عليه السلام أراد عمارة الدين في حاله وفي المستقبل، ولذلك كان تفكيره أنه هذا الشيء يتم ويكتمل بأن يأتي رجل من ذريته فيجتمعون عليه، وسيكون هذا أيضًا من سرور إبراهيم أن يكون هذا الأمر في ذريته، فإنه لا عز ولا شرف أعلى من هذه المرتبة أن يكون هو الخليل الرحمن ويكون من ذريته أيضًا خليلاً للرحمن.

^١ تيسير الكريم الرحمن - عبد الرحمن السعدي - تفسير الآية ١٢٩ سورة البقرة.

^١ [المنافقون: ٨]



من رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام فهو سفیه:

{وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِيهِ نَفْسِهِ ۖ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}

هذه الآية بمثابة النتيجة، فكأنّ السابق أدلة وهنا أتت النتيجة، هذه فضائل إبراهيم عليه السلام، فكيف بعد هذه الفضائل يُترك دينه ويُترك الاقتداء به فما يفعل هذا إلاّ سفیه العقل.

وهذا استفهام للاستنكار والاستبعاد، يعني من هو العاقل الذي يفعل هذا؟ وهنا ضروري جداً أن نتأثر بالسياق لأنّه كما اتفقنا فالقصة التي تُحكى لنا إنّما هي شاهد على موضوع السورة، فلا بدّ أن نتأمل موضوع السورة أو هذا السياق الذي أتت فيه القصة.

هذا الخبر عن إبراهيم عليه السلام أتى بعد الكلام عن بني إسرائيل ودعائهم إلى دين الله، فذكر أمر إبراهيم عليه السلام وما أجراه الله على يديه من مقامات شريفة ابتلاه بها منها بناء البيت والأمر بالحجّ إليه، وكيف تبين لهم أنّ إبراهيم عليه السلام محبوب على الحرص على مصالح العباد وعلى الدعاء لهم بكلّ خير، فكلّ هذا السابق أتى بعده {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} فكأنّه فيه توبيخ لليهود وللنصارى ولمشركي العرب أيضاً لأنّ اليهود يفتخرون به، والنصارى أيضاً يفتخرون به، وقريش أيضاً ما نالت من مكانة في الجاهليّة إلاّ بسبب البيت، والعدنانيون يفتخرون على القحطانيون بإسماعيل وأنّ الله أعطاه النبوة، فمعنى ذلك أنّهم في النهاية كلّهم يفتخرون بإبراهيم عليه السلام.

فإذاً إبراهيم عليه السلام هو الذي طلب من الله بعثة هذا الرسول، وهو الذي تضرّع وسأل الله بأسمائه، فكيف يكون منكم هذا التناقض؟ تتفاخرون بالانتساب إلى إبراهيم ثمّ لا تؤمنون بالرسول الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام؟! وهو الذي تضرّع من أجل أن يأتي.

فهذا إنّما هو سفه وكأنّه يُقال: {إِلَّا مَنْ سَفِيهِ نَفْسُهُ} يعني حملها على السفه، والسفه بمعنى الجهل، والسفه أبلغ من الجهل لأنّ الجهل ضربان:

← **جهل بسيط:** وهو ألاّ يكون للإنسان اعتقاد في المسألة فلا يفهمها ولا يعرفها.

← **وجهل مركّب:** وهو من يعتقد في الحقّ أنّه باطل وفي الباطل أنّه حقّ.

فأصبح السفه والله أعلم هو الجهل المركّب.

فبيّن تعالى أنّه من رغب عن ملة إبراهيم فإنّ ذلك لسفّه نفسه، وطبعًا هذه أعظم مذمة، وهذا مبدأ كلّ نقيصة فمن جهل نفسه، يعني ما عرف أنّه عبد، وأنّه ضعيف، وأنّه مأمور، فكيف سيعرف حسن الأشياء وقبحها؟ فسفّه النفس مذمة عظيمة ولذلك أتى الاستفهام هنا على سبيل الاستنكار.

وليكون الأمر واضحًا، فإننا نلاحظ أيضًا **{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}**

فإنّ **{يَرْغَبُ عَنْ}** ليس مثل - يرغب فيه - رغبت عن الأمر إذا كرهته، ورغبت فيه إذا أردته، ف**{وَمَنْ يَرْغَبُ}** هنا استفهام إنكاري - من يرغب عن ملة إبراهيم؟ - إلاّ واحد هذا وصفه.

ولاحظوا بعد ذلك **{مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}** هي الملة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلّم، لأنّه هنا أريد الترغيب في قبول النبيّ صلى الله عليه وسلّم وفي قبول الدين، فكأنّه يُقال: الملة التي أتى بها النبيّ صلى الله عليه وسلّم هي عين ملة إبراهيم في الأصول وفي الفروع، فبماذا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلّم؟ أتى بالتوحيد، أتى برعاية مكارم الأخلاق، أتى بالعبادات، وهذه فروع فالعبادات متفرعة عن العقيدة فالصيام والصلاة كلّ هذه موجودة في دين إبراهيم عليه السلام وموجودة في الأديان كلّها، إلاّ أنّ كفيّة العمل، فيها اختلاف.

وعلى كلّ حال فإنّ التوحيد، وأصول الشرائع، ومكارم الأخلاق، والمعاد والاستعداد له، كلّ هذا لا يمكن أن يكون فيها نسخ فهي ملة إبراهيم تمامًا، وإبراهيم - عليه السلام - تضرّع إلى الله وطلب منه بعثة هذا الرسول، وطلب من ربّه باسمه العزيز الحكيم أن ينصره وأن يؤيّده وأن ينشر شريعته. فإذا كنتم أيّها اليهود والنصارى والعرب مسلمين بأنّ إبراهيم عليه السلام محقّ، ما الواجب عليكم؟ الاعتراف بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلّم الذي هو في النهاية مطلوب إبراهيم عليه السلام.

واعلم أنّ طلب إبراهيم عليه السلام لرسول يأتي في ذرية إسماعيل معلوم حتّى في التوراة والإنجيل، وهو قد أتى بالدليل الدالّ على أنّه رسول، يعني ما أتى قرأ في التوراة والإنجيل أنّ هناك من ذرية إسماعيل من يأتي نبيًا فأتى وادّعى، لا معاذ الله، إنّما نبيًا ونزل عليه القرآن وأتته الأخبار عن العيوب التي لا يعلمها إلاّ نبيّ، يعني مثل نفس هذه الحكاية ما يعلمها إلاّ نبيّ.

على كلّ حال هم الآن امتهنوا أنفسهم واستخفّوا بها، وسنلاحظ أنّ هذا السّفّه إنّما أتى من الكبر لأنّه كما ورد في الحديث **((إِنَّمَا الْكِبْرُ أَنْ تُسَفِّهَ الْحَقَّ، وَتَغْمِصَ النَّاسَ))** فهم رغبوا عمّا لا يرغب عنه عاقل، فبالغوا في استسخاف

^١ [المعجم الكبير للطبراني - تاب الثاء - من اسمته ثابت - حديث رقم 1302]

أنفسهم وفي خسارتها، وعلى ذلك لا بدّ من احترام أنفسنا بالإيمان، لا بدّ من النّظر في أنفسنا، والثّقفة عليها فلا تُهلكها ولا تُوبقها ولا تُظلّها، بل نحفظها ونُدّها ونحملها حملاً على التّوحيد وعلى الإيمان وعلى الأعمال الصّالحة التي يحبّها ربّ العالمين.

هذا فيما يخصّ فهمنا للسياق، وأنّ في هذا عتاب لهؤلاء الذين ورد الخبر عنهم في الآيات السّابقة، فلمّا تقرأون الآيات السّابقة ستجدون إشارة إلى النّصارى وإلى المشركين أيضاً.

الثناء على إبراهيم عليه السلام:



على كلّ حال يأتينا الآن مدح لإبراهيم عليه السّلام **{وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا}** فيأتينا الخبر أنّ الله اختاره من بين سائر الخلق بالرّسالة، وبالتّبوة، بالإمامة، وكثّر الأنبياء من نسله، وأعطاه الخلّة، وأظهر المناسك على يديه، وجعل بيته آمناً، وبقيت هذه الآيات بيّنات إلى يوم القيامة، وشرفه الله عزّ وجلّ بتفاصيل كثيرة **{اصْطَفَيْنَاهُ}** فما بلغ حاله ملك من الملوك، ولم يبلغ حاله عظيم من العظماء، ففكّر جيّداً لو كان لك لبّ وعقل لن ترغب عن ملّته، وفي الآخرة سيكون عظيم المنزلة، فكيف تترك مُتَابَعَتَهُ؟ فالله قد اصطفاه في الدّنيا والآخرة، فمن سار على طريقه كان ممّن اختار لنفسه وحفظها **{وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ}** الصّٰلِحِينَ الذين لهم الدّرجات العُلا، قد ارتفعت مرتبتهم عند الله، وانظر إلى إبراهيم عليه السّلام فقد ارتفعت مرتبته عند الله في الدارين، هذا أعظم ترغيب في دينه، والاهتداء بهديه، وأشدّ ذمّاً لمن خالفه.

ولذا لا بدّ أن نطلب لأنفسنا الرّشد، والرّشد في اتّباع ملّة إبراهيم، لا بدّ أن تكون نفوسنا عندنا عزيزة فلا نخالف هذه الملّة، يعني مهما كان الإنسان حكيماً وفهيماً ويعرف الحياة، إذا خالف دين الله، وملّة إبراهيم ولم يلتزم بالشّريعة وملّة إبراهيم طبعاً بالنسبة لنا اليوم هي ملّة نبيّنا الكريم، مهما كان هذا الإنسان حكيماً فهو في الحقيقة سفيه وغير راشد لأنّه لم يلتزم بالشّريعة. لذلك لا يصحّ إطلاق حُكْمَاءٍ على من كفر بالله، أو على من فسّق مهما كان في كلامهم جمالاً أو في كلامهم خلاصة الحياة، فإنّ من لم يبيّن فكره على التّوحيد لا يستطيع أن يفهم الحياة أبداً.

من لم يبيّن فكره على التوحيد ← لا يستطيع فهم الحياة أبداً

الحياة كُتبت بلغة، الجاهل في التّوحيد لا يستطيع قراءتها وإنّما لتعلم التّوحيد والإيمان ستعرف كيف تقرأ الحياة، وكوننا نعلم أنّ الله قد اصطفى إبراهيم فإنّ هذا يزيدنا إيماناً وحبّاً له، إيماناً بمكانته عند الله وفضيلته ويزيدنا حبّاً له، وإن

كان هو صالح فكلّ من اتبعه فهو صالح، وانظروا النبي صلّى الله عليه وسلّم كان الأنبياء يحيّونه ليلة المعراج بقولهم:
((مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ)) فما أطيب وصف الصّلاح! أسأل الله عزّ وجلّ أن يُصليحنا لمجاورته.

أؤكد على نفسي وعليكم أنّ المخالفين للرّسل لسفهاء، مهما كانوا أذكىء، مهما كان عندهم علم بالصّناعة والتّجارة، بما يكون من شؤون الدّنيا، فإنّ أصغر صغير عندنا مؤمن أعقل منهم، وإنّ أبلد بليد عندنا مؤمن أعقل منهم، لأنّ العاقل هو الذي يتّبع ما جاءت به الرّسل، فقط هذا هو العاقل، الرّشيد، الحكيم.

فنسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا ممّن اتّبع الرّسل فكمّل عقله، وظهر عليه آثار الحكمة، وهذه الحكمة درجات لكنّ الله يرفع من يشاء، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يرشدنا ويكتملنا ويجعلنا ممّن حافظ على نفسه ولم يرض لها بالدّون ولم يبيعها بصفقة المغبون، نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا ممّن اتّبع سنّة الرّسول وتمسك بها وسار على هديه، اللهمّ آمين.

سبحانك اللهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

^١ [صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الإِشْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ - حديث رقم 269]